

الفصل الثاني

العلاج الواقعي والفشل

لقد أكدنا في الفصل الأول أهمية دراسة الفشل . ويبدو أن هناك أنواعاً كثيرة من الفشل ، ويعد الفشل المدرسي عادة هو الوحيد من بينها ، ولكن « هذا الظاهر مضلل » ، إذ ليس هناك عدة أنواع من الفشل ، وبناء على المفاهيم التي يتضمنها « العلاج الواقعي » المذكور في كتابي السابق ، يوجد نوعان من الفشل ، ولكن حتى هذين النوعين ، أي الفشل في الحب ، والفشل في كسب اعتبار الذات تربطهما علاقة متبادلة وثيقة . حتى ليصعب الفصل بينهما مع احتمال أن يكون الفصل متكلفاً (ومع أننا سنبحث في هذا الفصل فشل الأطفال الصغار إلا أن المبادئ تصدق على كل الأعمار) .

ولكي نعرف أن الفشل أقرب ما يكون إلى الأفراد منه إلى الجمع ، ولكي نضعه في سياق يمكن للمدارس أن تبحثه بحثاً وافياً ، يجب أن نختبر الضرورات الأساسية للناس ، وهنا تختلف الطريقة اختلافاً يسيراً عن تلك التي اتبعت في كتابي السابق ، والضرورات الأساسية في كتاب « العلاج الواقعي » وصفت بأنها الحاجة إلى الحب . والحاجة إلى اعتبار الذات ، فيجب أن يتعلم المرء أن يعطي ويأخذ الحب ، ويجب أن يبحث عن شخص ما في الحياة يبادلّه حباً بحب ، بل عن عدد كبير من الناس إن استطاع ، ولكن ، على أقل تقدير ، يجب أن يكون له شخص واحد يبادلّه الحب ، فإذا نجح شخص في منح الحب والحصول على الحب . واستطاع أن يفعل هذا طوال حياته ، فهو ناجح إلى حد ما . ويظن المرء عادة أن الحاجة

إلى الحب يمكن أن تشيع في البيت أكثر مما تشيع في المدرسة أو في معاهد أخرى خارجية ، ومع ذلك فإن الفحص الدقيق يكشف عن فساد هذا الاعتقاد ، فالمدرسون يربكهم الأطفال المحتاجون إلى العاطفة ، ولكنهم لا يعرفون في الوقت الحاضر كيف يتجاوبون مع حاجة التلاميذ الظاهرة إلى الحب ، والأطفال الذين يعوزهم الحب عززاً شديداً ، لا من المدرسين رحسب ، بل من بعضهم البعض ، ليس لديهم سوى فرصة ضئيلة للحصول على الحب في المدرسة . والقول بأن المعاونة على إشباع الحاجة إلى الحب ليست من وظيفة المدرسة ، معادل للقول بأن الأطفال الذين لا ينجحون في منح العاطفة الضرورية وتلقيها بدرجة مفرطة في البيت أو بين جماعتهم (خارج المدرسة) ليس لديهم سوى فرصة ضئيلة لتحقيق هذا ، فإذا فشلت في تعلم الحب كطفل وراشد ، فإن موقفك يصبح على الدوام ضعيفاً في تعلم الحب ، أما كيف تستطيع المدرسة ، وكيف ينبغي لها أن تشارك في مساعدة الأطفال على إثبات حاجتهم إلى الحب ، فسوف نناقشه بالتفصيل في هذا الكتاب .

يزداد اهتمام المدارس اهتماماً مباشراً بالضرورة الأساسية الثانية ، أي ضرورة الشعور بالاهتمام ، فالمعرفة والقدرة على التفكير ضروريان لتحقيق الشعور بالاهتمام ، فإذا ما ذهب طفل إلى المدرسة وفشل في كسب المعلومات ، وتعلم التفكير ، وتعلم حل المشكلات ، فيستبعد أن تصلح أسرته أو بيئته هذا الفشل ، يضاف إلى ذلك أنه في تعلم التفكير في حل المشكلات ، وهو الأمر الضروري للحصول على الشعور بتقدير الذات ، قد يحصل الطفل على قدر كاف من الثقة بالنفس بحيث يتعلم العطاء والأخذ في الحب ، وتوسع أمامه الفرصة على الأقل لإشباع حاجته إلى الحب لأنه حين يشعر بأهميته ، يستطيع التسامح في بعض ما ينبذه كما يحدث عند محاولته الحب ، والذي يتعلم أيضاً منح الحب تكون لديه بعض فرص النجاح في الحياة ، فمن الحب يطور

الدافع إلى النجاح والشعور بالاهتمام ، ومع ذلك فإذا لم يتعلم منح الحب ، بل مجرد أخذه ، فيغلب أن يفشل ؛ كما يتمثل ذلك في الطفل الفاسد الشخصية ، المدلل ، المحاط بكل صروب الحماية الذي يتساءل عن سبب عدم استجابة الدنيا له ، كما يفعل والداه الأحمقان .

إن الحب وتقدير الذات متلازمان تلازماً شديداً بحيث يمكن على أنسب وجه ربطهما باستخدام كلمة «توحد» للتعبير عنهما ؛ ومن ثمة نستطيع القول بأن الحاجة الأساسية الوحيدة عند الناس هي ضرورة التطابق : الاعتقاد بأننا شخصية متميزة عن الآخرين وأن شخصاً ما له أهمية أو جدير بالذكر ، ومن ثمة فإن « الحب وعاطفة تقدير الذات يمكن اعتبارهما الطريقتين اللذين اكتشف الإنسان أنهما يؤديان إلى توحد ناجح » والناس القادرون على تنمية التوحد الناجح هم أولئك الذين تعلموا العثور على طريقهم من خلال طريقى الحب وتقدير الذات ، ويعتمد الأخير على المعرفة والقدرة على حل مشكلات الحياة بنجاح .

هناك موضعان فقط يستطيع الأطفال فيهما التجانس الناجح ويتعلمون اتباع الطرق الضرورية، وهذان الموضعان هما البيت والمدرسة ، فإذا كان البيت ناجحاً كما قررنا آنفاً فربما ينجح الطفل برغم المدرسة ، ولكن الاعتماد على « إذا » أمر أخطر مما ينبغي ، ويجب أن نضمن أن تكون تجربة الطفل الكبرى إبان نموه ، وأهم عامل مستمر في حياته هي المدرسة التي تتوفر فيها الطريقتان الضروريتان : فرصة منح الحب وتلقيه ، وفرصة الحصول على التربية ، ومن ثمة يصبح ذا شأن .

أما في البيئة المدرسية فيمكن التفكير في الحب على أحسن وجه على أنه مسئولية اجتماعية ، وحين لا يتعلم الأطفال كيف يكونون مسئولين بعضهم

عن بعض ، ويهتم بعضهم البعض ، ويساعد بعضهم بعضا ، لا لصالح الآخرين وحسب ، ولكن لصالحهم الخاص ، فان الحب يصبح فكرة ضعيفة محدودة، ولا يحتاج المدرسون والأطفال إلى حب بعضهم بعضا في أسرة ضيقة أو حتى بالمعنى الوهمي الأضيق حدودا ، بل يجب أن يتعلموا أن يعنوا عناية كافية بمساعدة أحدهم الآخر في المشكلات المدرسية الكثيرة ، اجتماعية وتربوية، كما ينبغي أن تكون التربية من أجل المسؤولية الاجتماعية جزءاً من برنامج كل مدرسة ، فاذا لم يحدث هذا ، فسوف لا يحقق عدد كبير من الأطفال التجانس الناجح، بل إن البيت المبهج الناجح نسبياً سوف لا يعوض عادة فشل المدرسة ، مع أن الأطفال الذين ينتسبون إلى بيوت من هذا الطراز قلما يفشلون . ولا يستطيع مجتمعنا الاعتماد على البيت لتصحيح الفشل في المدرسة ، ولذلك يجب على المدارس أن توفر لكل طفل السبل الكى يشبع حاجته الأساسية من التجانس الناجح .

إن العجز عن التجانس الناجح لا يعنى أن الشخص سوف « لا » تكون له شخصية، فان عددا قليلا جداً من الناس يقضون حياتهم دون أن يعرفوا أنفسهم معرفة حقيقية ، وهم قلة من المرضى طوال الأجل في أى مستشفى للأمراض العقلية ، وبعض غربي الأطوار ومدمنى الشراب الذين يقيمون في مناطق الحانات وسجون الريف ، « ومزارع تشغيل الجانحين » بأية مدينة كبرى ، ومع ذلك فان هذه القلة من الناس لا تعتبر عبئاً ثقيلاً على المجتمع ، وعلى العكس نجد العدد الكبير من الناس لا يكتسبون تجانساً ناجحاً وينتهون إلى تجانس فاشل ، يواجهوننا بمشكلات مثيرة لا يمكن فيما يبدو أن تذلل .

ومع ذلك يبدو منطقياً أيضاً وجود أناس كثيرين ذوى شخصيات مختلفة بعضهم فاشل وبعضهم ناجح ، إلا أن هذا لا يحدث فيما مر بي من تجربة ، فالشخص يقوم بعمله في أى وقت وهو إما شاعر بالنجاح متمتع بالرضا

النفسى الذى يضيفه النجاح ، وإما أن يكون فاشلاً يحاول فى استئانة تجنب المضايقات النفسية الملازمة، وقلما يشعر بالقوة فى الحالىن ، إذ أن أحدهما يهيم على الآخر ، ولذلك إذا لم يستطع الشخص إظهار التجانس من خلال الحب وتقدير الذات فانه يحاول أن يفعل هذا بطريقتين آخريين هما الجنوح والانسحاب ، فالجنوح والانسحاب يؤديان بالفعل إلى التطابق ، ولكنه تطابق فاشل ، وكما ازداد استخدامهما أصبح التجانس انفاشل أشد صلابة ، إني أولئك الفاشلين يجب أن يتعلموا فى المدرسة إن لم يكن فى مكان آخر يبدو لهم أنه غير مستطاع ؛ فتلك الثغرة فى نظريهم هى المنافذ البديلة عن الحب وتقدير الذات التى يمكن أن تؤدي إلى التجانس أو المطابقة الناجحة ، وأكثر من ذلك يتعين عليهم اكتساب الثقة الكى يتخذوا الطرق الأكثر صوابا .

إن الطفل الفاشل الذى يشعر بأنه غير مرغوب فيه ، ويشعر بالقليل من الحب وتقدير الذات يكون فى موقف يائس ، ومع ذلك يجب أن يظل محافظاً على المطابقة والتجانس ، وأن يخلق شعوراً بكيانه الذاتى إذ أن هذا فى بنية جسمه ، فإذا لم يستطع ذلك فى البيت فيمكن أن يحاول فى الجماعة بارتباطه بالآخرين ممن يشعرون شعوراً ضعيفاً بالتطابق . وإذا حاول هؤلاء بطريقتهم الخاصة الحصول على بعض الإحساس بتقدير الذات ، وشعورهم بالاهتمام بشخص ما ، يكون مصيرهم الفشل دائماً تقريباً ، ويؤدي تجاهل القانون غالباً إلى الاعتقال (قد يجدون من ثمة بطريقة ملتوية شخصاً ذا اهتمام ، كضابط مراقبة المذنبين إذا لم يكن أى شخص آخر) ولما كانوا عاجزين عن إشباع مطالبهم بالقدر الكافى ، لأنهم لا يجدون الحب والتقدير الذاتى ، فانهم يصبحون مغيظين محبطين ، ويقاومون المجتمع الذى يظنونه قد حرهم من فرصة إشباع حاجاتهم ، فإذا أصبحوا عدوانيين مغامريرين ، فهم يحاولون الحصول على حاجاتهم عنوة ، وإذا أحبطوا فى هذه المحاولات الفاشلة ، أو إذا خافوا من اتخاذ طريق الجنوح ، فانهم يقاسون وينسحبون .

إنهم يقاسون وينسحبون لأنهم لا يستطيعون كشف الطرق الناجحة، ونحن نطلق خطأ على التغيرات المختلفة من المعاناة والانسحاب « أمراضاً عقلية » ولكن أمثال هؤلاء الناس ليسوا مرضى ، فان شيئاً لم يصبهم حتى أنهم لا يستطيعون علاج أنفسهم ، فالمرض يعنى أن شخصاً أصيب بالبكتريا أو التسمم ، أو اضطراب كيميائى لا يملك السيطرة عليه ، فيجب عند مساعدة الأطفال أن نحملهم على فهم « أنهم مسئولون » عن إشباع حاجاتهم وعن سلوكهم بحيث يستطيعون الوصول إلى تطابق ناجح ، ولا يستطيع أحد أن يفعل هذا نيابة عنهم ، فاذا استمروا فى اختيار طرقهم المؤدية إلى الفشل ، وإلى الانقاص من تقديرهم الذاتى وهى طرق عاطلة من الحب ، فانهم سيستمرون فى المعاناة ، وسيواصلون الجنوح أو الانسحاب ، ومع أن هذا الكتاب يوجه نقداً شديداً إلى المدارس لقاء العقبات التى تقيهما فى طريق التلاميذ الذين يحاولون الوصول إلى مطابقة ناجحة ، فأنى لا أحب أن أقلل من مسئولية كل تلميذ فى العمل يجد فى سبيل تربيته ، فبدون العمل الشاق والتنظيم الشخصى ، سيفشل التلاميذ بصرف النظر عن مدى إصلاحنا للمدارس .

عندما يعجز الأطفال عن إشباع حاجاتهم فى البيت ؛ لا بد لهم أن يفعلوا ذلك فى المدرسة ، فلا بد للأطفال لبدء خطوات النجاح أن يحصلوا فى المدرسة على ما يفتقدونه : علاقة طيبة بالآخرين ، الأطفال والكبار على السواء ، فالطفل أو الراشد لا يستطيع إحراز مطابقة ناجحة، وإشباع حاجاته من خلال الطرق الموحدة لأنه وحيد ، وبينما نصفه بتعبيرات ملطفة مختلفة مثل « محروم ثقافياً » و « مهضوم الحق » و « متباعد » ، و « معزول » أو حتى نصفه بالكلمة التى أفضلها وهى « غير مشارك » ، فان مشكلته الأساسية أنه لا يجد فى أسرته وجماعته أناساً يمكنه الارتباط بهم بنجاح ، وبوصفه طفلاً يكون أمله الوحيد من ثمة هو العثور على هؤلاء الناس فى المدرسة ؛ فاذا استمر فى وحدته فسوف

لا يشجع حاجته إلى المطابقة لأن طريق الحب وطريق تقدير الذات اللذين يحتاجان إلى التقدير في نظر الآخرين ، مسدودان أمامه .

« وإذن ، فإن هؤلاء الذين يفشلون في مجتمعتنا منزليون ، وهم في عزلتهم يتلمسون طريقهم إلى التطابق ، ولكن طرق النجاح مسدودة أمام المنزل ، والغضب والإحباط والمعاناة والانسحاب هي الطرق المفتوحة دون غيرها — وهي مطابقة فاشلة — والناس الناجحون هم الذين يرتبطون بالآخرين بنجاح ، والفاشلون يرتبطون بصورة ما ببعضهم البعض ، ولكن لا يفتأون يشكون من أنهم وحيدون منزليون في معظم الأحيان ؛ وفشل المحرومين الذي يرجع إلى حد ما ، إلى الحياة المنزلية غير الملائمة ، وإلى الحرمان الاقتصادي أو العنصري ينجم من العزلة — وتكون العزلة أحياناً في منازلهم ، وتكون الوحدة دائماً تقريباً في الجماعة الأكبر وفي أغلب الأحيان تكون « العزلة في المدرسة » . ولم تواجه المدارس مشكلة الفشل التي تسببها العزلة ، إذ رفضت مدارس كثيرة التسليم بأنها مشكلة ، وإذا سلمت بذلك فنقول إنها ليست مشكلتها . وهناك طريقة مقترحة على المدارس لتقليل العزلة فالفشل المترتب عليها ، وهي استخدام اجتماعات حجرة الدراسة ، وهي وسيلة وصفت وصفاً كاملاً في هذا الكتاب فيما بعد .

تحتل المدارس مركزاً فريداً للتخلص من حالة العزلة عند أطفالها أو أو إنقاصها على الأقل إلى حد كبير ، فهي مزودة على الأرجح بعدد من الناس المتحمسين الناجحين الذين يعنون عناية كبرى بالأطفال ، ولكنهم أصبحوا متحررين في التعبير عن الحب بسبب خلو برنامج المدرسة من فقرة شرطية تنص عليه ، ويمكن للمدارس أيضاً أن تمنح الطلبة المقومات الأساسية لتقدير الذات : المعرفة والتفكير ، ويمكن تنظيمها بحيث تحفز الأطفال إلى حل المشكلات المدرسية والاجتماعية على السواء ، ومن أهداف هذا الكتاب التعريف بكيفية مشاركتها للأطفال بحيث يستطيعون تغيير حالة العزلة التي

يحملها كثير جداً من الأطفال إلى المدرسة ، وهى العزلة التى تؤدى إلى الفشل .

وحيث تمارس « العلاج الواقعى » مع الأفراد بمكتب العلاج النفسى فى مدرسة فنتورا^(١) أو فى أى مكان آخر ، يمكن التغلب على العزلة بواسطة المعالج وهو شخص ناجح يشترك مع الشخص المنعزل ؛ ومع ذلك ، فحين يمارس العلاج الواقعى فى مجموعات كبيرة ، يجب على المعالج ألا يقتصر على الاشتراك بشخصه مع عدد كبير فى المجموعة ، بل يجب أن يكون مثلاً يحتذى للمشاركة المسئولة ، بحيث يمكن أن يتعلم منه أعضاء المجموعة كيف يشارك بعضهم بعضاً ، ويأخذون فى أداء العمل كمجموعة لحل المشكلة ؛ ولكن المشاركة وهى عنصر جوهري فى النجاح ، قلما توجد ، لسوء الطالع . فى مدارسنا .

وفى حين ينادى الطبيب النفسانى التقليدى بضرورة اشتراك المعالج مع المريض المنعزل ، وأن يظل بعيداً عنه عاطفياً ، يثبت العلاج الواقعى ضرورة وجود مشاركة حقيقية متحمسة وإيجابية . ويحتمل اعتماداً على تعاليم علم النفس التقليدى أن يعتقد كثيرون من المربين التقليديين اعتقاداً خاطئاً ، أنه ينبغي على المدرسين ألا يتورطوا عاطفياً مع تلاميذهم ، وهم يعتبرون الحاجة إلى الحافز ، سبب الفشل لدى عدد كبير جداً من الأطفال فى المدرسة ، وإن كانوا لا يستطيعون تفسير هذا العجز الواسع الانتشار فى الحافز ، وتفشل محاولاتهم بوجه عام فى استخدام ضغوط خارجية على الطالبة بقصد حفزهم ، بل لا يحاولون استخدام الحافز المباشر لأننا نعرف أننا لا نستطيع تنفيذه إلا « بالمسدس » أو بوسيلة قسرية أخرى ، ولكن المسدسات أو القوة أو

(١) معهد لرعاية أشد الفتيات جنوحاً ، فى كاليفورنيا ، حيث اشتغل المؤلف أحد عشر عاماً انظر كتاب « العلاج الواقعى Reality Therapy » .

التهديد أو الإخجال أو العقاب وسائل تاريخية ضعيفة ، وهى تفيد فقط (إذا واصلنا ضرب المثل بالمسدس) ما دامت مصوبة ضد الشخص ، وما دام الشخص خائفاً ، فاذا ماذهب عنه الخوف ، أو إذا ما وضع المسدس فان الحافز ينقضى .

لا يستخدم الطب النفسى التقليدى مسدساً ، لأنه يفترض أن كل مريض ينطوى على حافز يمكن أن يطلق من خلال حصول المريض على نفاذ البصيرة ، وهى فكرة صحيحة ورد ذكرها فى كتابى السابق ، وتفترض المدارس وجود حافز داخلى ، ولكن إذا لم يوجد هذا الحافز فانها تحاول حفز الأطفال بوسائل شبيهة باستخدام المسدس . وبالرغم من أن المسدسات لا تحل المشكلة مطلقاً ، فان المدارس فى كفاحها لحل مشكلاتها تالجا إلى استخدام مسدسات أكبر فأكبر - قيوداً وقواعد أكثر ، ومزيداً من التهديدات والعقوبات . وينادى العلاج الواقعى بوجود المشاركة بين المدرسين والتلاميذ ، فحين يكون التلاميذ مشاركين للمدرسين المسؤولين وللتاس الذين وصلوا إلى تطابق ناجح ويستطيعون إشباع حاجاتهم ، يصبح التلاميذ آنئذ فى مركز يسمح لهم بإشباع حاجاتهم الخاصة .

إن التلاميذ مسئولون عن إشباع حاجاتهم ، ومسئولون عن سلوكهم ، فهم ليسوا مرضى بعقولهم ولكنهم يسيئون الاختيار حين يكون تصرفهم منحرفاً ، ومع ذلك ليس فى استطاعتهم أن يحسنوا الاختيار ، أو أن يكون اختيارهم أكثر مسئولية ، ما لم يشتركوا اشتراكاً قوياً وعاطفياً مع أولئك الذين يستطيعون . ويمكن أن تبدأ المشاركة فى التربية بشخص واحد ، وليكن المدرس أو المستشار أو المدير ، أو يمكن أن نبدأ مع مجموعات من الأطفال ، أو حتى مع فصل برمته . ويقف المدرسون والمعالجون فى كثير جداً من الأحيان فى حالتى الطب النفسى وفى المدرسة بعيدين عن الأطفال ، فلا يشاركونهم عاطفياً ، ولا يتحمسون شخصياً وبدوافع شخصية .

ولا يكشفون عن أنفسهم ككائنات بشرية لكي يستطيع الأطفال التوحد معهم . ومن ثمة يفشلون في تلطيف عزلة عدد كبير من الأطفال المحتاجين إلى الحنان الإنساني احتياجا مفرطا . وتزدهر التربية فقط بالمدرسة حيث يشترك المدرس من خلال التفكير وحل المشكلة . وهى التربية التى تعد الطلبة للحياة الناجحة فى الدنيا .

ويجب أن نفهم ، لكي نصبح مشاركين . أنه بالرغم من فشل الطفل فى الماضى فإن فى مقدوره أن ينجح فى الحاضر إذا اهتمت المشاركة المتبادلة بين المدرس والتلميذ بمشكلات الحاضر . ويظل الطفل الفاشل فاشلا إذا كان المدرسون الذين يعملون معه يذكرونه بفشله . فالفشل يولد الفشل ، ولكسر حلقة الفشل يجب أن نعمل فى الحاضر لتحقيق من أن الشخص الذى ظل فاشلا طوال حياته ، يستطيع أن ينجح إذا تمكن من الاشتراك مع شخص مسئول . إن كثيرا من حفظ السجلات والمادة القصصية التى تنتقل من مدرس إلى مدرس تعد عبئا ثقيلا من الفشل على عاتق التلميذ ، فالتلميذ الذى يبحث أمره ويرى أنه مذنب من واقع سجله ، قد لا ينجح مطلقا ما لم يتأكد لديه من الآن فصاعدا أنه سوف لا يدان على ما فعله فى الماضى ؛ وسواء كنا نعمل فى العلاج أو فى المدارس ، يجب أن نعمل مع الفاشل حاليا مستخدمين الماضى وحده بوصفه متصلا بنجاح ماض أو باحتمال نجاح حاضر . والاعتقاد باستحالة مساعدة الطفل قبل تفهم ماضيه اعتقاد خاطئ . فكثيرا جدا ما يعنى فهم الماضى فى حقيقة الأمر فهما لفشل ماض . فالسجلات والبيانات الخاصة بالحالة الماضية للتلاميذ الذين يفشلون تخص قبل كل شيء فشلهم الماضى . ومع ذلك فإن المعلومات الوحيدة الجديرة بالتقدير ، والتى تجمع عن الماضى هى التى تتعلق بنجاح الطفل . ويمكن استخدام هذه المعرفة لمساعدته فى الحاضر ، إذ أن ماضى الناس الفاشلين ملىء بضروب الفشل . فلا فائدة من العمل مع الفشل . لأن المدرس (أو المعالج) والطفل يصبحان مشاركين اشتراكا عميقا فى الفشل . واعتقاد الطفل فى أن فشله جزء هام من علاقته

بالمدرس يؤدي إلى استمراره في الفشل . ولكن تجاهلنا للماضي للفاشل يشجع الطفل على تغيير سلوكه الحاضر ، فلا يهنا ماضيه . وقصارى القول أننا نعمل بالفعل مع تلاميذ فاشلين ، ولكننا نقصر عملنا على ما يعمله الطفل الآن ، وبمحاول حاضره أن ينجح .

إن اتباعنا مفاهيم العلاج الواقعى يجب ألا يضلله انفعالنا « فالتاس الذين يفشلون يلجأون إلى الانفعال لتوجيه سلوكهم » والتاس الذين ينجحون يعتمدون على العقل والمنطق ، وتكون نتيجة أى سلوك بطبيعة الحال هى الانفعال ، فع السلوك الناجح انفعالات سارة ، وعلى عكس ما يقاسيه الفاشلون من معاناة ؛ وإذن فبالإضافة إلى إظهار المشاركة الشخصية المتحمسة الإيجابية للطلبة ، والعمل معهم فى الحاضر . يجب أن نعالج « سلوكهم » ، لأن سلوكهم وحده هو الذى يمكن أن يغير . فالمرء لا يستطيع تغيير العاطفة مباشرة ؛ والعاطفة نتيجة السلوك . ولكن السلوك ، والسلوك وحده هو الذى يمكن إصلاحه . وعندما يصلح السلوك يؤدي إلى المشاعر الطيبة التى يمكن بدورها أن تتضاعف بسرعة نحو سلوك أفضل . ومع أن مشاركتنا يجب ألا تتجاهل المشاعر ، فينبغى حين نحاول تغيير السلوك أن نربط المشاعر بالسلوك ؛ وحين يغير شخص ما سلوكه ويشعر أنه أفضل من ذى قبل تعمق مشاركتنا له . وحين كان الناس فى الماضى يستجيبون لمشاعره ويتجاهلون سلوكه فى محاولة لمساعدته على الشعور بأنه أفضل حالا ، فكثيرا ما كان يواصل الفشل ، ثم يقاسى فى نهاية المطاف أكثر من ذى قبل .

لو فرض أننا نعرف طريقة العمل مع الأطفال . بأن نشرك معهم شخصيا ونعالج سلوكهم الراهن ، فيجب علينا مساعدتهم على تغيير سلوكهم وتوجيه وجهه أكثر نجاحا ، وللمساعدة طفل فاشل حاليا على النجاح . علينا أن نجعله يصدر حكماً قيمياً على ما يفعله الآن ، وأنه يؤدي إلى فشله ؛ فاذا كان لا يصدق أن ما يفعله سيؤدي إلى فشله ، واعتقد أن سلوكه لا غبار

عليه . فلن يستطيع أحد تغيير الطفل في هذه الحالة ، ويجب حينئذ أن يقاسى من نتائج رفضه تغيير سلوكه « فلا المدرسة ولا المعالج ينبغي أن تحاول التأثير في الدنيا لكي يقاسى الطفل من النتيجة المنطقية لسلوكه » ولكن ينبغي ألا نياس ، ونسلم بأن الفشل ليس نتيجة منطقية . ولا أهمية لكثرة فشله ، وينبغي أن نطلب إليه مراراً وتكراراً حكماً قيمياً إلى أن يبدأ في الشك ، في أن ما يدافع عنه هو في الحقيقة خير ما يلائمه .

وإذا أساء في الفصل فيجب على المعلمة أن تسأله ، « ماذا تفعل ؟ » فان كانت متحمسة وذاتية ، وإذا كانت تعالج الحاضر ، فلا تقذف في وجه الطفل بمساوئه الماضية ، فانه سيجيب بأمانة دائماً تقريباً ، ويخبرها عما يفعل ؛ ويجب على المعلمة آتئذ أن تسأل في عبارات مناسبة لسن الطفل ولموقفه ، سواء كان سلوكه يفيده ، أو يفيدها ، أو يفيد الفصل أو المدرسة ، فاذا قال الطفل « لا ، إن ما أفعله غير مفيد » فيجب على المعلمة أن تسأله عما يستطيع أن يفعل غير هذا العمل ؛ وهذا عكس ما يحدث تماماً في كل المدارس والبيوت حين يسعى التصرف ؛ وقد جرت عادة المدرس أو الوالد أن يقول للطفل أنه مخطيء ، فاذا لم يتغير فانه يعاقب ، فهذه الطريقة التقليدية ، وهي طريقة غير فعالة ، تنقل المسؤولية من سوء تصرفه إلى الطفل نفسه ، وتصدر المعلمة حكمها وتنفذ العقوبة في حين أن مسؤولية الطفل عما يحدث ضئيلة .

ويطلب إلى الطفل في العلاج الواقعي أن يختار طريقاً أفضل للسلوك ، فاذا لم يكن يعرف طريقاً أفضل ، فيجب على المعلمة أن تقترح بعض الطرق البديلة ، ومن ثم تساعد الطفل على التفكير في طريق أفضل لسلوكه . ولا يعرف الأطفال غير المسؤولين عادة كيف يتصرفون تصرفاً أفضل ، ويعتمدون علينا في مساعدتهم على تقرير الطريق الأفضل ، ومساعدتهم على التخطيط ، فاذا كان الطفل مثلاً يثرثر باستمرار ويزعج الفصل فيمكن للمعلمة بالاشتراك مع التلميذ عمل ترتيب جديد للجلوس بحيث يكون بعيداً عن الأطفال الذين

يُشرونه ، بحيث يفقد قدرته على ضبط نفسه ، فهذه الفكرة البسيطة التي تنفذ مع الطفل ، تساعد على الهدوء ، « إن على الطفل مسئولية ، فهو الذي يتخذ القرار من واقع تقديره الشخصي ، ومن ثمة يتعلم حمل المسئولية - وهو شيء نقدمه في شكل خدمة شفوية ، ولكننا لا نعلمه في المدارس » ونحن نعلم الامتثال دون تعقل لقوانين المدرسة ، ونصف الطفل الممثل بأنه « مسئول » ، ولكنه بالرغم من امتثاله فهو ليس بالضرورة مسئولاً ، لأن المسئولية تعلم فقط بتقييم الموقف واختيار الطريق الذي يظنه الشخص أنفع لنفسه وللآخرين ، وبمنح الأطفال الفرصة لتعلم هذا، من روضة الأطفال وما بعدها يمكنهم أن يصبحوا مسئولين ومدركين اجتماعياً ، وحينئذ نحتاج إلى القليل من القواعد والعقوبات .

ومع ذلك لا يكفي أن يحكم الطفل حكماً قيمياً ، بل يجب أن يختار طريقاً أفضل ، ثم يتعهد بتنفيذ ما يختاره ، ومن هذا التعهد نكتسب الحب الحقيقي « فيجب أن نعلم أطفالنا التعهد » إذ لا نستطيع أن نكون من طراز « مارك توين » حين شرح أن الامتناع عن التدخين أمر سهل : لقد فعل ذلك ألف مرة ، فيجب على الشخص أن يقطع عهداً مبنياً على الحكم بأن التدخين ضار ، وحينئذ فقط يمتنع عن التدخين - أو يتوقف عن إزعاج المدرسة ويبدأ في التعلم .

وأخيراً ، « وهذا هو حجر الزاوية في العلاج الواقعي ، فحين يحكم الطفل حكماً قيمياً ويتعهد بتغيير سلوكه ، لا يقبل منه اعتذار عند عدم الوفاء بتعهدة » . وهذا هو التأديب . يوقع المجتمع والمدارس العقوبة أساساً ، والعقوبة لا تفيد . وبالرغم من أن الطفل يقاسى مع التأديب من النتائج المؤلمة لسوء تصرفه ، فلا تبذل محاولة لزيادة الألم أو جعله تافهاً ، ويمكن فصل الطفل من الفصل أو من المدرسة إذا ساء سلوكه ، ولكن ليس لمدة اعتباطية ، بل إلى أن يقترح خطة للعودة وتعهد باتباع خطته .

وفى العقوبة يأتى الألم عقب ارتكاب فعل لا يقره شخص آخر ، وهذا الشخص الآخر هو الذى يحدث الألم ، وعلى العكس يكون الألم نتيجة طبيعية وواقعية لسلوك الشخص . ويختلف العقاب عن التأديب فى أن هذا الأخير قلما يكون اعتباطا ، إذ يتطلب فقط أن يقدر التلميذ سلوكه ويتعهد باتخاذ طريق أفضل ، ويحتاج التأديب أيضا مشاركة شخص هام أثناء التقييم والتعهد ، ولكى يكون التأديب ناجحا ، يجب على الشخص الهام (المعلمة) ألا تقبل مهما كانت الظروف أى عذر لعدم وفاء الشخص بالتعهد ، فإذا قبلت اعتذارا عن شىء لم ينفذ ، فهى توقف المشاركة لأن التلميذ حينئذ يعرف حقيقة أنها لا تهتم ، وتتوقف المشاركة لأن الشخص الذى يقطع على نفسه عهدا ثم يسمح له بالتحلل منه ، يعرف أنه سيقع تحت طائلة الأذى ، ولا يمكنه مواصلة التورط مع أى شخص يدعه يؤذى نفسه « إن المدرسين المهتمين لا يسمحون بقبول الأعذار » . والنموذج الكامل الذى يبرز المدرس المهتم ، هو عمل « آنى سليفان » مع العاجزة « هيلين كيلر » ، وهو النموذج المشروح فى « كتاب العلاج الواقعى » .

تزايد فى هذه الأيام أعداد التلاميذ الذين يفشلون فى الحصول على التوافق الناجح ، ولا يستجيبون استجابة منطقية وعاطفية ، إزاء فشلهم ، ويحتاجون - لكونهم منغزلين - إلى الاشتراك مع المثقفين المتحمسين والذاتيين الذين يعملون مع سلوكهم الراهن ، وهم بحاجة إلى المدرسين الذين يشجعونهم على إصدار حكم قيمى على سلوكهم بدلا من الوعظ وإصدار الأوامر ، إلى المدرسين الذين يساعدونهم على تخطيط سلوك أفضل ، ويتوقعون من التلاميذ تعهداً بالوفاء بما يخططونه ، وهم بحاجة إلى مدرسين يغفرون لهم حين يحثون بوعدهم ، ولكنهم يعملون معهم مراراً وتكراراً ، وهم يتعهدون ويعاودون التعهد إلى أن يتعلموا أخيرا الوفاء بالوعد ؛ وعندما « يتعلمون » ذلك ، لا يصبحون بعد منغزلين ، إذ يكتسبون نضجا واحتراما وحباً وتطابقاً ناجحاً .